الفصل الثاني

(الخريطة المذهبية وتقسيماتها في خراسان)

- أهل السنة والجماعة .
- الشيعة .
- الخوارج .
- المعتزلة .
- الصوفية .
- الكرامية .

بعدما أنهينا الحديث في الفصل الأول عن الصراعات الاجتماعية وأسباب قيام الصراع بين الطبقات والشرائح وأثره على الحياة الاقتصادية، كان لهذا الصراع أثر آخر لكن على الناحية المذهبية، أي أن الصراعات الاجتماعية بين طبقات وشرائح المجتمع قد تولد عنها صراع بين المذاهب المختلفة، وسوف نحاول بقدر الإمكان إثبات ذلك من خلال الفصول القادمة في فترة محل الدراسة، لكننا سوف نبدأ الفصل الثاني بتوضيح الخريطة المذهبية وتقسيماتها في خراسان وبداية انتشارها من أجل تكوين خلفية عامة لتفسير الصراع المذهبي.

مذهب أهل السنة والجماعة:

عرف أهل الجماعة أو الجماعية في التاريخ الإسلامي، بأنهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام الذين اجتمع رأيهم على مبايعة أبي بكر وعمر وعثمان من بعدهما، ثم عندما آل الأمر إلي بني أميه دخلوا في طاعتهم، ثم عرف هؤلاء كحزب وأطلق عليهم اسم"أهل السنة والجماعة" إلا أنه شمل الخاصة دون العامة أي السلف الصالح من أهل الفقه والحديث[١] .

أما بالنسبة عند أهل السنة تحتمل أحد معنيين إما أن تكون بمعنى الطريقة أي أن أهل السنة اتبعوا طريقة الصحابة والتابعين في تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق في معانيها، وأن تكون السنة بمعنى الحديث بأنهم يؤمنون بصحيح الحديث ويقرونه من غير تأويل كثير[٢].

وبقيام الخلافة العباسية أعلن المذهب السني هو المذهب الرسمي للدولة، وبالتالي عم هذا المذهب معظم أرجاء الولايات، ولاسيما إقليم خراسان الذي كان مهد الثورة العباسية، بل وأصبحت الدولة العباسية متعصبة لهذا المذهب

---

(١) البغدادي، الفرق بين الفرق، صـ٣٠٠-٣٠١؛ أحمد رمضان، الخلافة في الحضارة الإسلامية، ط. القاهرة د.ت، ص ١٥٦.

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط. القاهرة ١٣٢١هـ ، صـ٧؛ أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط١ مكتبة النهضة. القاهرة ١٩٥٥م، ج٤، ص٩٦.

ويمثلون الأكثرية أي حزب الأغلبية.

حتى إن هاملتون جب[1] قد شبه قيام الدولة العباسية بتحالف ولايتي خراسان والعراق حيث أن غالبية سكانهما(باستثناء الكوفة) من السنة الأمر الذي أدى إلى قيام تحول مذهب وفكري في العالم الإسلامي.

ومن ثم ينقسم أهل السنة إلى قسمين الأول يسمى الأشاعرة، والثاني يسمى الماتريدية.

فالأشاعرة: هم أصحاب أبي الحسن الأشعري(٢٦٠- ٣٢٤هـ/٨٧٣-٩٣٥م) وهو علي بن إسماعيل بن اسحق بن سالم بن إسماعيل بن أبي موسى الأشعري وأول من خالف أبو علي الجبائي(*) ورجع عن مذهب المعتزلة، حيث كان مناصراً للشافعي فانتشر مذهبه في خراسان والعراق والشام، وقد وافق على عقيدة الأشعري المالكية والشافعية[2].

أما الماتريدية: نسبة إلى الإمام أبي منصور محمدبن محمدبن محمود الماتريدي وأصله من ماتريد محله بسمرقند (ت:٣٣٣هـ/٩٤٤م) وانتشر مذهبه في بلاد ما وراء النهر وخراسان، وهو قريب من المذهب الحنفي بل إن مذهب الإمام أبي حنيفة هو عقيدة الماتريديه[3].

ومن أشهر علماء الماتريدية "أبو القاسم بن محمد بن الحكيم السمرقندي

---

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة:إحسان عباس ومحمد يوسف،ط ٣ دار العلم للملايين.بيروت ١٩٧٩م، ص٩٢

* أبوعلي الجبائي: هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام أبو علي الجبائي البصري شيخ المعتزلة، وكان رأسا في علم الكلام، واخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري، وله مقالات وتصانيف مشهورة، واخذ عنه الشيخ أبو الحسن الأشعري صاحب المذهب السني المعروف (ت: ٣٠٣ هـ) (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٠٦ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، ط١. دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م،ج٣، ص٢١٠).

(٢) أبي عذبه، الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، ط١مجلس دائرة المعارف النظامية- حيدر آباد. الهند ١٣٢٢هـ، ص٣، ٤

(٣) أبي عذبه، المصدر السابق، ص٤ ؛ فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، مجلد الأول، ترجمة محمود فهمي حجازي، ط السعودية ١٩٨٣م، ج٤، ص٤٠.

الماتريدي"، تولى القضاء بسمرقند زمناً طويلاً، حيث كان مشتغلاً بمسائل الكلام أكثر من الفقه وتوفى(٣٤٢هـ/ ٩٥٣م)، ويعد كتابه"السواد الأعظم على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة" هو أقدم مختصر في مذهب الماتريدية في علم الكلام[١].

أما المذاهب السنية الرئيسية الأربعة فهي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، لكل مذهب فقهه وآراؤه، ومما لاشك فيه أن اختلاف آراء آئمة المذاهب الأربعة قد جعل نوعاً من التنافس في أنحاء العالم الإسلامي والمشرق خصوصاً؛ لذلك سوف نوضح الأماكن والأقاليم التي انتشرت فيها تلك المذاهب في خراسان وأيهم أوسع انتشاراً.

المذهب الحنفي:

فنبدأ بهذا المذهب بما أنه مذهب الخلافة العباسية الرسمي، فضلاً عن انتشاره في كل بلد أو ولاية كان للعباسيين سلطان فيها، غير أن بعض البلاد تغلغل فيه بين الشعب وبعض البلاد كان فيه المذهب الرسمي من غير أن يسود بين الشعب في العبادات ولاسيما في العراق وما وراء النهر و خراسان والبلاد التي فتحت في المشرق المذهب الرسمي ومع ذلك كان مذهباً شعبياً[٢]

.

أما عن انتشاره في خراسان فيقول المقدسي إن للمذهب انتشاراً كاملاً في إقليم خراسان إلا في كورة الشاش وطوس ونسا وأبيورد، وقد ساد مذهب الإمام أبي حنيفة في مدينة مرو، حيث كانت له مدارس فقهيه يدرس فيها المذاهب[٣].

إلا أن المقدسي قد جعل مدينة الشاش إحدى مدن إقليم خراسان، فهذا

---

(١) أبي عذبة، الروضة البهية، صـ ١٠؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، ط الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٣م، ج٣، ص ٢٨٧،٢٨٨

(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ط دار الفكر العربي د.ت، ص١٧٣

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٢٣،٣١٠

كتقسيم جغرافي غير صحيح ؛ لأن مدينة الشاش إحدى مدن إقليم ماوراء النهر والتي كان بها المذهب الشافعي له ظهور قوي، لكن من الناحية الإدارية كانت مدن ماوراء النهر مضمومة إلى والي خراسان .

وقد كان للمذهب الحنفي في خراسان شيوخ وفقهاء نشروا المذهب وأسسوا المدارس منهم شيخ الحنفية بخراسان"زكريا بن يحيى النيسابوري" الفقيه العابد والذي توفى ٢٩٨هـ/٩١٠م[١]، وفقيه نيسابور القاضي "أبو الهيثم محمدبن جعفر بن إسماعيل" وقد أخذ عنه فقهاء نيسابور مثل القاضي "أبو محمد الناصحي" (ت:٤٤٧هـ/١٠٥٥م) والقاضي"أبو العلاء صاعد بن محمد الإستوائي"*، ومن أشهر فقهاء الحنفية أيضاً في نيسابور"أبو الحسين قاضي الحرمين" و "أبو سهل الزجاجي" وتفقه عنهما شيوخ الحنفية في خراسان[٢].

المذهب الشافعي

بعد انتشار المذهب الشافعي بالعراق ومكة والشام، اتخذ الشافعية بعد ذلك من إقليم خراسان مقاماً، وخصوصاً مدينة نيسابور، ولاشك أنهم في تخريجاتهم متأثرون ببيئتهم المختلفة والأحداث التي تنزل بهم، وطرق علاجها ولاشك أن ذلك يدعو إلى اختلاف الآراء، ولو تم النظر إلى آراء فقهاء خراسان وتم تحليلها على ضوء ذلك لوجدنا أثر البيئة واختلاف النزعات، ومنهم من كان يتقيد تقيداً شديداً بالفروع المأثورة عن الشافعي، ومنهم من لا يتشدد في التقيد، وإن وجود الشافعية بخراسان جعلهم يتصلون

---

(١) الذهبي، دول الإسلام، تحقيق: حسن إسماعيل، ط١ دار صادر بيروت ١٩٩٩م، ج١، ص٢٧٠

* القاضي أبو العلاء صاعد بن محمد الاستوائي: هو من أعلام الحنفية في عصره ووصل لرياسة الحنفية بخراسان وظل في خدمة الغزنويين، وتولي القضاء نيسابور ثم اختاره السلطان محمود الغزنوي مربياً لولده مسعود، وقد اعتزل الحياة السياسية عام ٤٢٦هـ/١٠٣٤م. (أنظر: البيهقي، تاريخ البيهقي، صـ٦٠٤)

(٢) الشيرازي، طبقات الفقهاء، تحقيق:إحسان عباس، ط دار الرائد العربي- بيروت ١٩٧٠م، ص١٤٥

بالشيعة الإمامية[1].

ويذكر المقدسي[2] بعض المدن التي انتشر بها المذهب الشافعي مثل داندانقان* وسرخس*، ولكن الغلبة لهم كانت في مدينة نيسابور، وللمذهب الشافعي أيضاً وجود بمدينة مرو حتى أن الإمام" أبو زيد محمد بن أحمد بن عبدالله المروزي" (ت:٣٧١هـ/٩٨١م) هو حافظ للمذهب الشافعي بمرو وعنه أخذ "أبو بكر القفال المروزي"(*) وفقهاء مرو، كذلك أخذ فقهاء نيسابور عن"أبي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي"* (ت:٣٩٦هـ) حيث كان فقيهاً أدبياً شاعراً متكلماً[3].

وقد قاسموا في خراسان الحنفية في الفتوى والتدريس، مع أن المذهب الحنفي كان له سلطان ؛ لأنه مذهب الدولة العباسية فكان للمذهب الشافعي شعبية كبيرة لدرجة أنه تمت صراعات ونزاعات بين أصحاب الفريقين في خراسان وما وراء النهر، فالخلاف يقع بين الفريقين في مناظرة يتنازعان أطراف الأدلة[4].

ولقد تضافرت الأسباب لانتشار المذهب الشافعي بهذه البلاد منها العلماء ونشاطهم، مثل الإمام محمد بن إسماعيل القفال الكبير الشاشي

---

(٣) محمد أبو زهرة، الشافعي حياته وعصره، آراؤه وفقهه، ط دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٤٨م، ص٢٧٤

(٤) أحسن التقاسيم، ص٣٢٣

* داندانقان: هي مدينة صغيرة محصنة بباب واحد، وهي أحدي مدن مرو الشاهجان. (المقدسي، المصدر السابق، صـ٣١٢)

* سرخس: هي مدينة كبيرة عامرة وهي مضافة إلى مرو وهي بلد مشهورة بتجارة الحبوب. (المقدسي، نفسه، صـ٣١٢-٢١٣)

(*) القفال المروزي: هو أبو بكر عبد الله بن أحمد الفقيه الشافعي المعروف بالقفال المروزي كان وحدز فانه فقهاً وزهداً وله في مذهب الإمام الشافعي وهو شيخ والد إمام الحرمين وكان يعمل في الأقفال؛ ولذلك قيل له القفال ت: ٤١٧هـ (انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٣، ص٣٣١)

* أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكي: هو فقيهاً أديباً شاعراً متكلماً مفسراً صوفياً وعنه أخذ أبو الطيب وفقهاء نيسابور وتوفي عام٣٦٩هـ/٩٧٩م. (أنظر: الشيرازي، طبقات الفقهاء، صـ١١٥)

(١) الشيرازي، المصدر السابق، ص١١٥

(٢) محمد أبو زهرة، المرجع السابق، ص ٢٧٢، ٢٧٥

(ت:٣٦٥هـ/٩٧٥م) الذي أدخل المذهب الشافعي في بلاد ما وراء النهر، فضلاً عن الإمام "الحافظ عبد الله بن محمد بن عيسى المروزي"الذي أظهر مذهب الشافعي بمرو وخراسان بعد "أحمد بن سيار" والسبب في ذلك هو خروج الإمام عبد الله المروزي (ت: ٢٩٣هـ/٩٠٥م) إلى مصر فأدرك الشيخ "الربيع بن سليمان المرادي" شيخ من شيوخ الشافعية الكبار في مصر فتعلم على يديه وعلى غيره من أصحاب الشافعية[١].

وانتشر المذهب الشافعي في إيران إنتشاراً كبيراً، كما ثبت للأصول الأشعرية أقدامها في إيران حتى القرن الربع الهجري[٢]. يتضح مما سبق أن المذهبين الحنفي والشافعي كانا هما المذهبان الرئيسيان في بلاد خراسان وما وراء النهر، إلا أن المذهب الحنفي كانت له غلبه نوعاً ما بسبب أنه المذهب الرسمي للخلافة العباسي، أما عن قول أحد المؤرخين[٣] بتثبيت الأشعرية أقدامها، فهذا راجع إلى أن الأشعرية شافعية ومناصرون لمذهب الإمام الشافعي، بل أصبح المذهب الأشعري هو المذهب السياسي للدولة لمحاربة معارضيها . كيف؟

لقد اختلفت نظرة كلٍ من الأشاعرة والحنفية لإرادة الإنسان والعقل أو ارتباط العلة بالمعلول، فالأشاعرة قالوا بافتراق الإرادة عن الإنسان فالخير والشر من عند الله وليس للإنسان أي تدخل أي أنه مسير، وعلى النقيض الآخر يري الإمام أبو حنيفة أن هناك ارتباطاً بين الإنسان وإرادته حيث من الممكن أن يكفر الإنسان بربه أهذه إرادته؟! أم يقول الله لو أراد لي الإيمان لآمنت، فهذه تعد سلباً لقدرة الإنسان، وعلى طريقته سار المعتزلة الذين أولوا النصوص وجعلوها تتماشى مع العقل والواقع، وبناء على تلك المعتقدات من جانب الأشاعرة في سلب الإرادة الإنسانية، فيمكن التأكيد على حقيقة واقعة

---

(٣) نفسه، نفسه، ص٣٧١

(٤) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ص١٥٣

(١) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ص١٥٣

لهـا أثـر فكـري سياسـي علـى الخلافـة العباسـية وأمـراء وسـلاطين الـدويلات المشـرقية، ألا وهـي أن سـلب الإرادة يتـيح للخلافـة وفقهائهـا بفعـل مـا يحلـو لهـم مـن اضـطهاد وقمـع ومصـادرة الآراء تحـت اسـم قضـاء الله وقدرتـه، ممـا يعنـي تبريـر السياسـات الجـائرة للحكـام. وهـو أسـلوب متبـع ضـد الشـيعة والمعتزلـة والخـوارج والقرامطـة، فتـارة اتهامـات بـالإباحيـة والإلحـاد، وتـارة أخـرى بالزندقة.

ومصـداقاً لـذلك هـو أنـه لـيس مـن الغريـب أن يسـاند الإمـام أبـو حنيفـة النعمـان- وهـو فقيـه مـذهب مـن المـذاهب السـنية الأربعـة- أئمـة الشـيعة بـالرغم مـن اخـتلافهم، ولكـن الحـس السياسـي العـالي لـدي الإمـام أبـي حنيفـة جعلـه يتعـاطف ويؤيـد العلـويين فـي ثـوراتهم ضـد الحكـم الأمـوي أو العباسـي وظهـر ذلـك جليـاً فـي ثـورة"محمـد الـنفس الزكيـة" وأخـوه" إبـراهيم الإمـام"فـى المدينـة والعـراق عـام ١٤٥هـ/٧٦٢م، وأيضـاً تأييـده لثـورة وخـروج "زيـد بـن علـى" علـى الخليفـة"هشـام بـن عبـد الملـك"بالكوفـة ١٢٢هـ/٧٣٩م وقولـه:" خـروج زيـد يضـاهي خـروج رسـول الله يـوم بـدر" وكانـت هـذه الآراء الجريئـة مـع ميولـه العلويـة مـن غيـر تشـيع سـبباً فـي ألا ينظـر إليـه الخليفـة المنصـور نظـرة رضـا بـل يترصده و يبث العيون حوله[١].

ويضـيف آدم ميتـز[٢] أن المـذهب الحنفـي بفضـل مرونتـه أكثـر ملائمـة للحكومة الفاطمية الشيعية التي كانت تظل الأحناف برعايتهم دون مصادرة.

وبالمثـل الشـافعية فـي بعـض الفتـرات قـد مـالوا لمسـاندة الشـيعة الإماميـة الإثنـا عشـرية- سـيأتي ذكـرهم فيمـا بعـد- ضـد ثـورة الحكـام، حيـث كـان بعـض السـنيين يعيـرون الإمـام الشـافعي بتشـيعه لآل البيـت بقـولهم لـه يـا رافضـي، فكـان يجيـبهم عن ذلك بهذا البيت:

---

(١) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، صـ١٢٨؛ الشهرستاني: الملل والنحل، ط. دار بيروت ١٩٤٨م، ج١، ص١٦٣؛ محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية،ص١٥٣، ١٥٧، ١٥٨

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري،ج١، ص٢٩٧

إن كـــان رفضـــاً حـــب آل محمـــد فليشـــهد الـــثقلان أنـــي رافضـــي[1]

مـن هـذه النصـوص يتضـح مـدى انفتـاح وعقلانيـة المـذهب الحنفـي، وفـي فتـرات الشـافعية، لكـن اتخـاذ الخلافـة العباسـية المـذهب الحنفـي مـذهباً رسـمياً لهـم كـان شـكلياً فقـط، لأن الأشـعرية هـي المـذهب السياسـي للخلافـة وحراسـها فـي المشرق.

المذهب المالكي

بـالرغم مـن أن ذكـر المـذهب المـالكي فـي خراسـان لـم يـأت عنـد كثيـر مـن المـؤرخين، فلـم تتحـدث المصـادر عـن وجـود أو دور بـارز للمـالكيين فـي خراسـان، إلا أن هنـاك ثمـة إشـارة عـن وجـود شـكلي للمـذهب المـالكي إلـي جـوار نظيريـه الحنفـي والشـافعي، ولاسـيما فـي مدينـة نيسـابور، والإشـارة تقـول بظهـور جماعـة يقولـون بمـذهب أهـل المدينـة أي مـذهب الإمـام مالـك[2]، لكـن هنـاك بعـض المؤرخين[3] من يؤكد بخلو خراسان من المذهب المالكي.

إلا أنـه مـن المـرجح أن يكـون للمـالكيين وجـود فـي خراسـان، لكـن لـيس ظـاهر أي هـم جماعـة محـدودة مناصـرون للمـذهب المـالكي، والأمـر الـذي يعضـد ذلـك عـدم ذكـر المصـادر لأئمـة والشـيوخ الـذين نشـروا المـذهب فـي خراسـان، الأمر الذي يؤكد عدم وجود غلبة أو ظهور قوي لهم.

المذهب الحنبلي

بـالرغم مـن قـوة رجـال الفقـه الحنبلـي لـم يكـن انتشـاره مناسـباً مـع هـذه القـوة، وذلـك لعـدة أسـباب أولهـا : أنـه جـاء بعـد أن احتلـت المـذاهب الثلاثـة التـي سـبقته الأمصـار الإسـلامية فكـان الحنفـي فـي العـراق وخراسـان، والشـافعي فـي مصـر

---

(٣) محمد أمين غالب، تاريخ العلويين، ط دار الأندلس-بيروت ١٣٨٦هـ /١٩٦٦م، ص١٩٠

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٢٦٧ ؛ محمد أبو زهرة: الإمام مالك، ط٤ دار الفكر العربي. القاهرة ٢٠٠٢م، ص٣٨٩

(٥) ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الفكر العربي. القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٧٨

والشام وخراسان، المالكي في المغرب والأندلس، أما ثانيهما : أنه لم يكن منه قضاة والقضاة إنما ينشرون المذهب الذي يتبعونه، ثالث هذه الأسباب هو شدة الحنابلة وتعصبهم وكثرة خلافهم مع العامة لا بالحجة والبرهان بل العمل، وكانوا كلما قويت شوكتهم اشتدوا على الناس باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ذكر ابن الأثير عنهم في سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤ م أن عظم أمر الحنابلة وصاروا يكبسون دور القواعد العامة، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آله الغناء واعترضوا في البيع والشراء، وإذا مشى الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن التي معه من هي؟ فأخبرهم وإلا ضربوه[١].

وفي عام ٣١٧هـ/٩٢٩م وقع بسبب تفسير قوله تعالي"عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً" في سورة الإسراء فتنة عظيمة بين الحنابلة وغيرهم، ودخل فيها الجند والعامة واقتتلوا بينهم قتلى كثيرة[٢] وبسبب هذه الأعمال نفر الناس منهم ولم ينتشر مذهبهم إلا قليلاً.

تلك هي كانت خريطة لتوزيع مذاهب السنة في إقليم خراسان وتعريف بهذه المذاهب، لكن ظل الصراع والنزاع خصوصاً بين الشافعية والحنفية مستمراً لكن سنتحدث عنه تفصيلاً في المبحث الخاص عن الصراعات المذهبية.

مذهب الشيعة

تعتبر الشيعة من أقدم الفرق الإسلامية، وقد وجدت هذه الفرقة بعد حادثة الخلافة ومبايعة أبي بكر الصديق حيث إنهم يرون أن على بن أبي طالب أحق بالخلافة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه من الأقربين.

إلا أن أدق تعريف للشيعة هو ما أورده الشهرستاني[٣] أن الشيعة هم

---

(١) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٣٤٤

(٢) أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ط. القاهرة د.ت، ص٧٤

(١) الملل والنحل، ج١، ص١٤٦

الـذين شـايعوا عليـاً رضـي الله عنـه علـى الخصـوص، وقـالوا بإمامتـه وخلافتـه نصاً ووصية إما جلياً وإما خفياً.

واعتقـدوا أن الإمامـة لا تخـرج عـن أولاده، وإن خرجـت فـبظلم يكـون مـن غيـره، أو تقيـة مـن عنـده، وقـالوا: ليسـت الإمامـة قضـية تنـاط باختيـار العامـة وينتصـب الإمـام بنصـبهم، بـل هـي قضـية أصـولية، وهـي ركـن الـدين، ولا يجـوز للرسـل علـيهم السـلام إغفالـه وإهمالـه ولا تفويضـه إلـي العامـة وإرسـاله، ويجمعهـم القـول بوجـوب الـنص و التعيـين وثبـوت عصـمة الأنبيـاء والأئمـة وجوباً عن الصغائر والكبائر[1].

بالنسـبة لنشـأة هـذه الفرقـة هنـاك بعـض المـؤرخين أشـاروا إلـى قـدم الشـيعة منـذ عهـد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، لكـن لـم تكـن فرقـة ذات مـذهب سياسـي كمـا أصـبحت فيمـا بعـد بـل إن الإمـام علـي بـن أبـي طالـب رضـي الله عنـه ومعـه عـدد مـن الصـحابة لا يفارقونـه وهـم أهـل زهـد وتقشـف مثـل (أبـي الـدرداء ومعـاذ بـن جبـل وأبـي ذر الغفـاري وبـلال بـن ربـاح) وأن الإمـام شـاركهم فـي خشـونة الملبس والمأكل والرضا باليسير[2].

إلا أن الشـيعة كفرقـة سياسـية قـد بـدأت عنـدما بويـع الإمـام علـي بـن أبـي طالـب الخلافـة، وقـد خالفـه طلحـة بـن عبيـدالله والزبيـر بـن العـوام وأبيـا إلا الطلـب بـدم عثمـان بـن عفـان وقصـدهما علـي بـن أبـي طالـب ليقاتلهمـا حتـى يفيئـا إلـى أمـر الله، فتسمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول شيعتي[3].

أمـا عـن انتشـار التشـيع فـي خراسـان فقـد بـدأ منـذ خـروج الإمـام علـي بـن موسـى الرضـا ثـامن أئمـة الشـيعة الإثنـى عشـرية فـي زمـن المـأمون، وقـد نشـر التشيع بين أهل خراسان فضلاً عن وجود كثير من الشيعة أصلاً بهما[4].

---

(٢) الأشعري، مقالات الإسلاميين، ط٣. فيسبادن- ألمانيا ١٩٨٠م، ج١، ص٨٧

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج٤، ص٣١٣ ؛ محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ط ٢. لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٥٩م ، جـ ٢ ، ص٥٩

(٤) ابن النديم، الفهرست، ط.الرحمانية مصر-١٣٤٩هـ، ص٢٤٩

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ط٤ مطبعة الإنصاف - بيروت ١٩٦٠م، ج١، ص٣٢

إلا أننا نري أن التشيع في خراسان قد ظهر منذ قيام الدعوة العباسية السرية وتجمُّع الشيعة العلويين من أتباع الحسين حول الدعوة العباسية مطالبين بحقوقهم في الخلافة بما أن العباسيين أولاد عمومتهم من آل البيت، وكانت شرارة ثورتهم في خراسان تحت رياسة أبي مسلم الخراساني، للتخلص من الحكم الأموي الجائر الذي اضطهد الشيعة ونكل بهم أشد تنكيل بل واتخذوا حقهم- قسراً- في الخلافة وجعلوها ملكاً وراثياً، وتكريس الظلم الاجتماعي بفعل وجود الإقطاع[1]

لكنِّ هناك قضية تستحق المناقشة ألا وهي لماذا انتشر الشيعة ببلاد الفرس؟ وهل ارتبط التشيع بالفرس فقط؟

لقد انتشر التشيع في بلاد الفرس بشكل كبير وواضح إبان قيام الثورة العباسية، مدعمين ومساندين تلك الثورة التي تخلصهم من حكم بني أمية الجائر، ولاسيما أن رجل الثورة الأول أبو مسلم الخراساني من أهل خراسان، ظناً منهم أن لهم حقاً في الخلافة بما أنهم من بيت واحد هم والعباس بن عبد المطلب.

ومن جانب آخر هو سبب جغرافي وهو بعد خراسان عن مركز الخلافة الأموية في دمشق والبعد أيضاً- فيما بعد- عن بغداد مركز الخلافة العباسية، مما يسهل عليهم القيام بحركات تمردية وثورية ضد الخلافة لمواجهة الجور والظلم بالإضافة إلي طبيعة المكان حيث إن معظم أقاليم بلاد فارس بها جبال ومرتفعات مما يصعب على الخلافة ومعاونيها من حكام أقاليم المشرق قمع الثورات الشيعية.

ويعضد هذا الرأي بارتولد[2] قائلاً : "بأن الشيعة وجدت أرضاً ملائمة في إيران، وكانت مدينة قم[*] مركزاً للعصبية الشيعية منذ زمنٍ بعيد " . أما

---

(٢) أبي حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق : عبد المنعم عامر، ط. القاهرة ١٩٦٠م، ص٣٣٢ ؛ بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٩٨

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٩٨

(*) قم : هي مدينة من إحدى مدن إقليم الجبال، فهي حصينة وعليها سور، واهلها كلهم شيعة . (انظر: الاصطخري، المسالك والممالك، ط. ليدن ١٨٧٠م، ص٢٠١)

بالنسبة للشق الآخر من التساؤل هل ارتبط التشيع بالفرس فقط؟ فالفرس الذين دخلوا في الإسلام أولاً لم يكونوا شيعة، فضلاً عن أن كثيراً من علماء أهل السنة وإجلائهم من أصل فارسي كالبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم، ومن دخل من الفرس وتشيع فحاله حال كل من تشيع من سائر الأمم كالعرب والترك والروم[١].

فقد ذهب بعض المؤرخين المحدثين مثل(رادوفو- دوزي- ميوللر- براون) إلى القول بأن الفرس هم من أوجدوا مذهب الشيعة في الإسلام وأظهروه كمذهب ديني وأنه رد فعل للفرس في مواجهة العرب، إلا أن بطروشوفسكي وفلهاوزن صارا في الاتجاه القائل بعدم رد نشأة وارتباط التشيع بالفرس؛ لأن أوائل من شايعوا علياً كانوا من العرب[٢].

وقد انتشر المذهب الشيعي في بعض مدن [illegible]

نظراً بالطبع لغلبة المذهب السني وهو المذهب الرسمي للخلافة العباسية، والمذهب المتبع للسامانيين والغزنويين والسلاجقة[٣]، وكانت مدينة نيسابور بها بعض الشيعة[٤] و أيضاً مدينة هرات برغم غلبة المذهب السني الحنفي عليها[٥].

وانقسمت الشيعة إلي عدة فرق، وقليل من هذه الفرق من كان له دور في المعارضة والثورة على الخلافة، حيث إن البعض منهم آثر الهدوء والمهادنة وعدم إثارة المشاكل مع الخلافة العباسية لضراوة قمع السلطة العباسية، ومن الشيعة ما هو متطرف أو فرق مغالية خرجت على الخلافة وعلى الدويلات

---

(١) السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ص٤٩

(٢) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ص٨٦،٨٧

(٣) الإصطخري، المسالك والممالك، ص١٥٤ ؛ آدم متيز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص١٠٥

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣١٦

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، ط٢ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ص٣٩٦

التابعة للخلافة في خراسان، لكننا هنا سنشير الي أهم فرق الشيعة، الذين كان لهم دور في تغيير أحداث الصراعات المذهبية والاجتماعية والسياسية في المشرق عامة وخراسان خاصة.

الشيعة الإمامية: وهم الذين ساقوا الإمامة في ولد فاطمة وعلى بالنص عليهم واحداً بعد واحد، ويشترطون معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان، فالإمامة عندهم من على بن أبي طالب الوصي إلى ابنه الحسن بالوصية ثم الي أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين، ثم الي ابنه محمد الباقر، ثم جعفر الصادق، ومن هنا افترقوا فرقتين، فرقة ساقوها إلي ولده إسماعيل وهم الإسماعيلية، وفرقة ساقوها الي ابنه الآخر "موسى الكاظم" وهم الاثنا عشرية، لوقوفوهم عند الثاني عشر من الأئمة وهو محمد بن الحسن العسكري الذي اختفي بسرداب بسامراء وهي الغيبة الكبرى عام ٢٦٥هـ/٨٧٨م ثم يعود لينشر العدل أي هو المهدي المنتظر[١]

وبالنسبة لنشاط فرقة الإمامية عموماً في المشرق إبان فترة العصر العباسي مرت بمراحل متباينة بين الثورة والمهادنة، فقط كان الفرع الحسني من العلويين هو الأكثر نشاطاً وفعالية من الناحية السياسية والعسكرية، ونجح في إقامة كيانات سياسية في المغرب واليمن وطبرستان، بينما كان آل الحسين اهتموا بتطوير الفقه الشيعي، في أصوله وفروقه حيث اختفاء الإمام الثاني عشر أو غيبته ٢٦٥هـ/ ٨٧٨ م إشارة واضحة تنم عن ترك دعواه ونشاطه السياسي[٢]

إلا أننا نري أن نشاط الإمامية في خراسان يكاد يكون غير متواجد بل والمشرق الإسلامي بصفة عامة بسبب قوة وبطش العباسيين والأتراك، هذا

---

(١) الأشعري، مقالات الإسلاميين،ج١، ص٨٨ ؛ ابن خلدون : المقدمة، ط . دار الفجر القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٥٦

(٢) فاروق عمر، التاريخ الإسلامي، وفكر القرن العرشرين(دراسات نقدية في تفسير التاريخ)، ط١ بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص٢٦٤

بجانب أنهم هادنوا النظام العباسي منذ حياة الإمام جعفر الصادق[*]، ومن الممكن أن تكون تقية خوفاً من السلطة العباسية، وفكرة الأخذ بالتقية هي فكرة ومعتقد عام عند فرقة الشيعة.

الشيعة الزيدية

فالزيدية فرقة شيعية ظهرت ظهوراً واضحاً في بداية القرن الثاني الهجري، وهم أتباع الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[*]، وقالوا بإمامته ثم قالوا بعده بالإمامة في ولد فاطمة كائناً من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة[1]

لكن نشاط الزيدية سياسياً وثورياً كان كبيراً وقوياً من خروج الإمام زيد بن علي على الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٢٢هـ/ ٧٣٩م وقتل على يد الخلافة الأموية، لأن هناك فرقاً بين الزيدية والإمامية، فالزيدية لا يأخذون بالتقية بل يثورون على الظلم والجور ولابد أخذ الحق بالقوة وتمثل هذا بالفعل في خروج زيد بن علي إلي أن بدأت في خراسان على يد "محمد بن القاسم بن على العلوي"[*].

وقد خرج "محمد بن القاسم العلوي" على المعتصم العباسي

(*) جعفر الصادق : هو جعفرالصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين، سمي بالصادق لصدقه، وهو سادس الأئمة الإثنا عشرية ولد سنة ٨٠هـ/٦٩٩م بالمدينة وتوفي عام ١٤٨هـ / ٧٦٥م وانشغل بالعبادة عن السياسة (انظر: ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ص٢٢٠) .

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٢٥٣

(*) محمد بن القاسم العلوي : هو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب هرب من الكوفة إلى خراسان فتنقل من مواضع كثيرة من كورها كمرو و سرخس و الطالقان ونسا، حيث دعا كثير من الناس إلى إمامته، وأكثر هؤلاء بالكوفة وطبرستان وكثير من كور خراسان . (انظر: المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص٥٢) .

عام(٢١٨هـ/٨٣٣م) من الكوفة حتى وصل إلى خراسان يدعو إلي الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم، فاجتمع إليه ناس كثير، فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر (٢١٣-٢٣٠هـ/٨٢٨-٨٤٤م) أمير خراسان وهزمه وقتل بناصية الطالقان[١].

وواصلوا نشاطهم في خراسان لاسيما في فترة العصر العباسي الثاني مواجهة الظلم الاجتماعي القائم والطغمة العسكرية التركية الجائرة، إلى أن أقاموا لهم كياناً سياسياً شيعياً زيدياً في طبرستان عام ٢٥٠هـ/٨٦٥م، سنتحدث عنه تفصيلاً فيما بعد حينما دخل في صراع مع كيانات سنية مثل السامانيين والغزنويين[٢].

ومن اللافت للنظر أن المذهب الزيدي نما وانتشر وذلك لعدة أسباب منها: وجود أئمة من آل البيت وهؤلاء اجتهدوا ووافقوا الإمام زيداً في أكثر ماوصلوا إليه من حلول للمسائل وخالفوه في كثير وآراؤهم أضيفت إلي المذهب فوسعته، وهذا بالإضافة إلي عدة أماكن متنائية الأطراف قد وصل إليها المذهب مثل بلاد الديلم، فضلاً عن فتح باب الاجتهاد في المذهب الزيدي وكان من الاجتهاد فيه ما يستحق من حلول في المذاهب الأخرى الأربعة السنية[٣].

ومن الملاحظ أيضاً بالرغم من أن الزيدية فرقة شيعية إلا أن هناك تقارباً بين المذهب الزيدي الشيعي والمذهب الحنفي السني، فمذهب الزيديين مذهب جامع ليس بمقصور على اجتهاد الإمام "زيد بن علي"، ولاسيما أنه يتلاقى مع مذهب أبي حنيفة في باب المعاملات، والسبب هو أن الإمام أبا حنيفة نفسه التقى بالإمام زيد بن على بل أخذ عنه وأيده في خروجه على ظلم هشام بن عبد الملك، و قد تلاقى المذهبان في بلاد ما وراء النهر، فأخذ كل منهما عن

---

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢،ص٤٧١-٤٧٢ ؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٧ ؛ المسعودي: مروج الذهب،ج٤، ص٥٢ ؛ جوزجاني : طبقات ناصري، ص١٩٢

(١) حسن أحمد وأحمد الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٤٨٠

(٢) محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٤٩٦

الآخر، وأن بعض نقلة الفقه الزيدي كان يأخذ من المذهب الحنفي حيث لا نص في الزيدي[1].

ومن ضمن سمات المذهب الزيدي وعوامل نموه واتساعه هو أخذه بالمذهب العقلي وقولهم بأن العقل يحكم حيث لا نص أو سند بدون عقل وأن للعقل سلطاناً في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح بجانب القياس على الأشياء والاستنباط[2]، ولعل هذا كان سبباً في تبنيهم قضية العدل الاجتماعي، وعدم الخضوع للظلم والجور عما كان له أبلغ الأثر على جهادهم ضد سلطان الخلافة[3].

الشيعة الإسماعيلية

وهم من قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بالنص، وإن كان مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة في عقبه، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلي ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر، ويكون دعاته ظاهرين إقامة للحجة على الخلق، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته، ومن بعد محمد المكتوم ابنه "جعفر المصدق" ثم ابنه "محمد الحبيب" وهو آخر المستورين، وبعده ابنه "عبيد الله المهدي" الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في بلاد المغرب وبايع الناس على دعوته[4].

كما أنهم أيضاً يسمون بالسبعية وذلك بسبب أن المذهب قد تطرقت إليه بعض تعاليم "الأفلاطونية المحدثة" و"الفيثاغورثية" وهو مبني في كل تفاصيله على العدد الخفي"سبعة" فهنالك سبع فترات في فترات الأنبياء والرسل(آدم،نوح، إبراهيم، موسى،عيسى، محمد صلى الله عليه وسلم، محمد

---

(٣) نفسه، المرجع السابق، ص٥٠٠

(٤) نفسه، نفسه، ص٤٩٥

(٥) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، تحقيق: فان فلوتن، ط١ . القاهرة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م، ص٢١

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٥٦-٢٥٧

بن إسماعيل) وكل واحد من هؤلاء أعقبه سبعه من الأئمة، وأول كل سبعة من هؤلاء الأئمة هو الإمام الصادق وهو"صامت" لكنه "ناطق" و"رئيس" وآخر كل سبعة من هؤلاء الأئمة يعقبه اثنا عشر نقيباً، وتنتهي الفترة النبوية بالأخير منهم لتبدأ بعدها فترة نبوية أخرى، فالفترة النبوية السادسة التي بدأت بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قد بلغت نهايتها على الإمام السابع "محمد بن إسماعيل"[1].

وكل هذه المعتقدات ناتجة عن تفسيرهم الباطني للقرآن الكريم ؛ لذلك سموا أيضاً بالباطنية[2]، الأمر الذي جعلهم فيما بعد فرقة سياسية متطرفة نوعاً ما وأخذت سياسة الجهاد الثوري، وانبثق عنها فرقة من أشهر الفرق السياسية الدينية في التاريخ الإسلامي وهي القرامطة.

لقد كانت فرقة الإسماعيلية منقسمة جغرافياً إلى فرعين أحدهما في المشرق الإسلامي ويمثله القرامطة، والآخر في افريقية ببلاد المغرب تحت زعامة الخلفاء الفاطميين[3]، لأنه بقيام الدولة الفاطمية انتهى أخطر دور مر على الأئمة الإسماعيلية، فانقضى "دور الستر" وجاء بعده "دور الظهور"[4].

أما عن الفرع الثوري الجهادي الذي كان [illegible] الإسلامي وهدد الخلافة العباسية تهديداً كبيراً وهو "القرامطة" هذا المذهب الذي كان له وجود بخراسان، صحيح أن ليس له غلبه لكن كان مؤثراً على الحالة السياسية آنذاك.

ولقد نشأت القرامطة كفرقة أول ما نشأت في العراق سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م

---

(٢) إدوارد جرانفيل براون، تاريخ الأدب في إيران،ج٢، ص٢٤٣ ؛ أوليري دي لاسي: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة: تمام حسان، ط مكتبة الأسرة٢٠٠٧م، ص١٣٥ ؛ محمد محمدي : الأدب الفارسي، ص٨٣

(٣) ابن الجوزي، المنتظم،ج١٢، ص٢٨٧

(١) أوليري دي لاسي، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص١٣٦

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٢، صـ٢٩٠؛ حسن إبراهيم وطه أشرف، المعز لدين الله الفاطمي، ط٢ مطبعة السنة المحمدية. القاهرة د.ت، ص١٠

في المنطقة المحيطة بمدينة واسط، فهناك أنشأ رجل يدعى "حمدان بن الأشعث" الملقب بالقرمطي(لعلها كلمة آراميه معناها المعلم السري) مركزاً لأتباعه دعاه، والواقع أن الألفة والشركة في الأموال سادت في هذه الخلية الأولى من خلايا تلك الحركة، فكان المريدون يقيمون "ولائم محبة" يتناولون فيها طعام أهل الجنة[1].

ومن الملاحظ في دراسة فرقة القرامطة أن أهم ما يميزهم هو انخراطهم في سلك الثورة ضد الخلافة وظلم العسكر بالرغم من وجود مبدأ التقية المأخوذ به عند الشيعة، لكنهم وجدوا الوقت المناسب للثورة، بالإضافة إلى فكرة أخرى هي "المهدوية" تلك الفكرة المسيطرة على عقيدة الشيعة جمعاء وهو أنه سيعود المهدي المنتظر ليقضي على الجور ويعيد الحق والعدل، ولعل هذه الفكرة المرتبطة بالفكر الشيعي عموماً ناتجة بالفعل عن وضعية الاضطهاد الاجتماعي والاقتصادي منذ أواخر القرن الثالث الهجري، الأمر الذي جعلهم يثورون في وجه الخلافة ومن ساندها وإن أخذ شكل التطرف إلي حد ما.

وكانت هذه الحركة في الأصل منظمة سرية ذات صبغة اشتراكية، حيث يفرض على من يريد الانضمام إليها أن يتكرس رسمياً، وكان للحركة أرزاق جارية من ثروة مشتركة مما يؤديه الأعضاء تبرعاً في الظاهر، بالإضافة إلى أن لهم قانون إيمان يقوم على مبدأ السؤال والجواب مبني على تفسير القرآن تفسيراً رمزياً يتكيف تبعاً لمقتضيات كل الأديان والأجناس والطبقات وهم ينادون بالمساواة والعدالة الاجتماعية ويجعلون العمال والصناع صنوفاً لها مراسيم كمراسيم النقابات المنظمة، وأقدم وصف لتنظيم هذه النقابات الإسلامية ورد في الرسالة الثامنة من رسائل إخوان الصفا[2].

ولا يمكن تفسير انتشار هذه الحركة وخطورتها إلا بعد معرفة العلاقة

---

(٣) ابن الجوزي، المصدر السابق، صـ٢٨٧؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٢٩

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، ط٩ دار غندور- بيروت ١٩٩٤م، ص٥١٧

بين المبادئ التي بشرت بها وبين الوضع الاجتماعي والاقتصادي للجماعات التي انتشرت بينهم، ففي خراسان وطبرستان والديلم نجد -بالإضافة إلى الروح القومية والعداء السياسي للعباسيين- نظاماً طبقياً يعطي الجاه والثروة لجمهرة من الشيوخ ويضع العبء على الجماهير، فاتفق الشيعة مع الجماهير ودافعوا عن مصالحهم وبذلك اكسبوا حركتهم صفة شعبية فنجحوا في جهودهم[1].

وقد تمثل هذا في سلب القرامطة للحجر الأسود من الكعبة عام ٣١٧هـ/٩٣٠م، تلك العملية التي قام بها القرامطة بدافع اقتصادي وليس بدافع ديني أي أنه عمل رمزي الهدف منه أبرز احتجاج القرامطة بكل وضوح وشدة على استغلال موسم الحج من قبل التجار والموسرين لغرض التجارة التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة، وبناء على ذلك قرر القرامطة مهاجمة القوافل حتى يتوصلوا إلى اتفاق مع السلطة العباسية من أجل إشراكهم في الحج و الاستفادة من الأرباح[2]، وبالمثل دار الهجرة التي أقاموها في البحرين حيث إنهم عاشوا في مناطق قاصرة عليهم دون غيرهم مطبقين سياسة الاكتفاء الذاتي في المعيشة[3].

أما عن انتشار مذهب القرامطة في خراسان كان على يد إمام من أشهر أئمة المذهب وهو "ميمون القداح" الذي يعد بمثابة مؤسس قواعده، حيث كان يدعو لآرائه متخفياً وهو يزاول مهنته في قداحة العيون ولاسيما أن أتباعه ودعائه يجوبون خراسان لنشر هذا المذهب[4].

ويبدو أن اتجاه الدعوة إلى كسب ركيزة شعبية من بين الطوائف الكادحة

---

(٢) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص١٧

(٣) فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ط١ مؤسسات المطبوعات العربية- بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢٧٢

(٤) محمد السعيد جمال الدين، دولة الإسماعيلية في إيران، ط. القاهرة ١٩٧٥م،ص١١٤

(١) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج١٢، صـ٢٨٧؛ على أحمد الشحات، أبو ريحان البيروني، ص٢٥

قد أثر منذ أول وهلة على موقف التشيع بصفة عامة، بحيث أصبح الشيعة جميعاً يلجئون إلي استمالتهم ويعملون على تأليف القلوب حولهم سواء في خراسان أو حتى في بلاد ما وراء النهر، وقد سارت الدعوة الإسماعيلية في نفس الاتجاه إلا أن حاربهم ملك الترك "بغراخان" وقتل منهم الكثير عام ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م[١].

كذلك وضح النشاط الملموس الذي بدأه دعاة الإسماعيلية في خراسان والري[*] وطبرستان وما وراء النهر بإيعاز من الإمام "عبيد الله المهدي"، ويدلنا على ذلك الجهود التي قام بها الداعي "أبو حاتم الرازي" (٣٢٢هـ /٩٣٣م) والداعي النسفي (٣٣١هـ /٩٤٢م) و الداعي "أبو يعقوب السجزي"(٣٣١هـ/٩٤٢م)، ونستطيع القول بأن عبيد الله قد استغل نفوذ دعاته في خراسان وماوراء النهر وطبرستان والري وغيرها استغلالاً تاما[٢].

هذا فضلاً عن قيام الداعي"الحسين بن على المروروذي" الذي كان قائداً للجيش السامانى في عهد الأمير "نصر بن أحمد السامانى" وقد عصا الأمير نصر وضم سيستان وهرات ونيسابور واعتنق المذهب الإسماعيلي ودعا إليه وأصبح من جملة الدعاة، ولاسيما أن عدداً لا بأس به من أهالي خراسان البسطاء قد أقبلوا على المذهب الإسماعيلي بهدف الخلاص من الوضع الاجتماعي والاقتصادي السيئ[٣].

خلاصة القول أن الشيعة بوجه عام هم المناوئون الأُوَل للسلطة العباسية

---

(٢) محمد السعيد جمال الدين، المرجع السابق، ص٨٧ ؛ فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص٢٦٦

(*) الري : هى مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وأشهر مدنها الشافعية نظراً لغلبة المذهب الشافعى بها. (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١٦) .

(٣) حسن إبراهيم حسن وطه أشرف، عبيد الله المهدي، ط مكتبة االنهضة د.ت،ص١٨٦

(٤) عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص١٤١

السنية، ويهدفون الي الخلاص ولكن ليس محاربتهم بهدف ديني أو عقائدي أو مذهبي بحت بقدر ما هو عداء بسبب العدالة الاجتماعية وكثرة اضطهادهم منذ عهد الخلافة الأموية حتى العهد العباسي، بجانب انتشار المذهب الشيعي بفرقه في خراسان بل تكوين كيانات سياسية مهددة للخلافة مثل الإسماعيلية والقرامطة.

مما لاشك فيه أن هذا الصراع السياسي والاجتماعي أسفر عن تأثر الفكر أو تغير فكر الشيعة بالقول بالبداء أو البدائية تلك الفكرة التي لها خلفية سياسية واقتصادية واجتماعية، حيث أن البداء مرتبط بحدوث الأسباب والمسببات وليس كما الذي شاع بين الكُتَاب والمؤرخين للمذاهب أن البداء هو تبدل إرادة الله وتجدد علمه بالأصلح والأحسن، إلا أن البداء عند الشيعة المقصود به هو أن أي تغير سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي نتج عنه حدوث تغيرات سياسية أخرى وعسكرية ووضع عام، وبالفعل هو ما حدث من ثورة وحركة للشيعة في خراسان ضد سلطان الخلافة ومعاونيها من الحكام الجائرين المستغلين والمتعصبين[1]، بالإضافة إلى فكرة الوراثة وتأكيد فكرة انتقال الأسرار المكنونة والعلوم اللدنية من الإمام الأب إلى الإمام الابن[2]، حيث أن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام وأن الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق[3].

الخـــوارج

إذا كان أهل السنة يمثلون اليمين والشيعة يمثلون اليسار المعتدل، فان الخوارج عبروا عن موقف اليسار المتطرف.

أما عن تسمية الخوارج نكاد نلمح اتفاق بين مؤرخي الفرق أنهم سموا

---

(١) هاشم معروف الحسيني، الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ط١ دار العلم بيروت ١٩٧٨م، ص٢٣٠.

(٢) مجموعة الوثائق الفاطمية، المجلد الأول (وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة)، تحقيق وتحليل: جمال الدين الشيال، ط لجنة التأليف والترجمة . القاهرة ١٩٥٨، ص١٩

(٣) الكليني الرازي، الأصول من الكافي، ط ٣ دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ، ج١،ص٥٣٨

الخوارج نظراً لخروجهم على الإمام "علي بن أبي طالب" في وقعة صفين الشهيرة وحادثة التحكيم ضد معاوية بن أبي سفيان عام ٣٧هـ/٦٥٧م[١]، إلا أن هناك بعض المؤرخين[٢] يرون أن الخوارج أول ما خرجوا كان في حياة الخليفة أبي بكر الصديق حينما امتنعوا عن دفع الزكاة وكان على إثرها حرب الردة و تمثلوا الآية الكريمة:"ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها" وعُرفوا باسم "المحكمة الأولى" نظراً لتبنيهم شعار "لا حكم إلا الله".

وأيضاً سموا أنفسهم بالشراة لقولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله ذاهبين إلى قوله تعالي: "ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله"[٣].

إلا أننا نري أن لفظة الخوارج قديمة قبل الإسلام وقد لاحظنا أنها قيلت في العصر الروماني، وقد قال بها أحد الكتاب اللاهوتيين الرومان يدعي "ترتوليان" (١٦٥-٢٢٠م) عندما كان يدافع عن العقيدة المسيحية ضد الفلسفة ويعتبرها عدواً للدين قائلاً: "أي علاقة توجد بين أثينا وأورشليم بين الأكاديمية والكنيسة أو بين الخوارج والمؤمنين"[٤]

وقد انتشر الخوارج في المشرق الإسلامي وكان لهم مناوشات ومصادمات كبيرة مع السلطة الطاهرية والصفارية حيث نجحوا في جذب كثير من الناس إلي مذهبهم؛ بسبب قوانينهم المبنية على الانتخاب بجانب معارضتهم للخلافة العباسية حيث انضم إليها السكان المتذمرون للتنفيس عما يختلج في نفوسهم من آمال ومطامح، إلا أن قواهم وجموعهم كانت مبعثرة في خراسان وسيستان وكرمان وفارس مثل الأزارقة*

---

(٤) الشهر ستاني، الملل والنحلل، ج١، ص١١٤

(١) أحمد رمضان، الخلافة في الحضارة الإسلامية، ص١٩٩ ؛ محمود إسماعيل: سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج١،ص ١٥٢

(٢) ابن العماد الحنبلي، شذارت الذهب، ج١،ص٢٨٨-٢٨٩ ؛ التنوخي: نشوار المحاضرة، ط مطبعة المفيد دمشق ١٩٣٠م، ص٤٢

(٣) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، ط. دار المعارف ١٩٥٧م، صـ١٣

* الأزارقة: هؤلاء هم اتباع نافع بن الأزرق الحنفي، ولم تكن للخوارج قط فرق أكثر عدداً ولا أشد منهم شوكاً، ويقولون بأن مخاليفهم من الأمة مشركون. (أنظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، صـ٦٣،٦٢)

والنجدات*، والواضح أن تحركات الخوارج في هذه المناطق لم تكن دائمة ولم يبسطوا سيطرتهم على كل المدن والقرى بصورة محكمة وفعالة(١).

إلا أن للخوارج ثورات كبرى في خراسان وسجستان لدرجة أن فترة إمارة طلحة بن طاهر بن الحسين (٢٠٧-٢١٣هـ/٨٢٢-٨٢٨م) مضت كلها في محاربة الخوارج ؛ لأن الخوارج ظلوا هكذا في حالة كر و فر في خراسان وسيستان تحت رئاسة زعيمهم "حمزة بن أدرك" الى أن مات وتولى مكانه أخوه "عبد الله بن طاهر" عام ٢١٣هـ/٨٢٨م الذي أيضاً قد واجه الخوارج لكن لم يستطع الاستمرار بسبب انشغاله بمحاربة الخرميين(*)، فقد أعطى الإمارة لأخيه "على بن طاهر" لكنه سرعان ما قتل في حرب الخوارج، وفي الواقع ظل الخوارج هكذا في مشاحناتهم حتى بعد موت زعيمهم "حمزة بن أدرك" ورفعوا شخصاً آخر يدعى "أبا اسحق" رئيساً عليهم ثم هرب فاختاروا شخصاً بدلاً منه يدعى"أبا عوف" نهاية بزعيمهم

---

* النجدات: هم اتباع نجدة بن عامر الحنفي وكان السبب في رياسته أن نافع لم أظهر البراءة من القعدة عنهم أن كانوا على رآيه وسماهم مشركين، واستحل قتل أطفال مخالفيه ونساءه وكان مقره اليمامة، وأقاموا على أمامته، ومنها تفرعت فرقة بإمامة عطية بن الأسود الحنفي في سجستان وتبعهم خوارج سجستان. (أنظر: البغدادي، المصدر السابق، صـ٦٥، ٦٦).

(٤) صابر محمد دياب، الدولة الإسلامية في العصر العباسي قضايا وموقف، ص ١٤٧

(*) الخرميين : هم أتباع بابك الخرمي الذي ظهر ببلدة البذ وهي بأذربيجان حيث يرى الدينوري أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني، وقد عظم أمره وهابه الناس وحاربوه ولم يقدروا عليه، لكن الخرمية نفسها نسبة إلى خُرمَا امرأة مزدك أحد الموابذة أي رجال الدين الفرس في دولة الساسانيين، والتي أخذت على عاتقها نشر مبادئه بعد مقتل زوجها على يد خسرو الأول أنوشروان، حيث كان جوهر دعوتها إلى المساواة بين البشر في كل شيء في المال والعقار والنساء، وهناك رأي قائل بنسبتهم إلى خُرَّم وهي قرية بإقليم أردبيل، كذلك أطلق عليها الخرمدينية نسبة إلى خرم أي فرج المرأة وهو رمز للشهوة، وأطلق على أتباعها المحمرة لأنهم لبسوا الثياب الأحمر ويهدفون إلى العودة إلى القومية الفارسية وتخريب الأراضي وقطع طرق التجارة على الخلافة العباسية متخذة صبغة اجتماعية متطرفة، وكانت بداية ظهورها في أواخر عهد الرشيد عام١٩٢هـ لكنها اشتدت في عهد المعتصم الذي استطاع القضاء عليها وعلى بابك عام ٢٢٢هـ/٨٣٧م على يد قائده الأفشين وتم قتل بابك الخرمي.(انظر: ابن النديم، الفهرست، ص٤٨٠ ؛ البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٢٥١ ؛ الطبري : تاريخ= =الرسل والملوك، ج١٠، ص٣١٧ ؛ أبو حنيفة الدينوري : الأخبار الطوال، ص٤٠٢،٤٠٥ ؛ عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الأول، ص٤٠٠، ٤٠٥ ؛ سعيد نفيسي : بابك خرم دين، ص١٦).

"عمار الخارجي" عام ٢٣٣هـ/٨٤٧م والذي قتله يعقوب بن الليث الصفار[١].

ومن الجدير بالذكر أن بداية انتشار الخوارج بخراسان كانت أيام الخليفة المهدي عام ١٦٠هـ/٧٧٦م على يد "يوسف البرم" الذي ينتمي لعرب قبيلة بني ثقيف المهاجرين وشملت دعوته القسم الشرقي لخراسان أي في حدود مرو الروذ و الطالقان ثم سيطر على سائر خراسان[٢].

وقد تركز الخوارج بكروخ واسترابيان إحدى مدن هرات، والسبب في ذلك التركز أن تلك المدن كثيرة ومتشعبة الجبال مما يصعب من مهمة أي مواجهة قمع للخوارج نظراً لطبيعتهم البدوية الجبلية[٣].

نخلص مما سبق أن الخوارج حزب ثوري صريح في وجه الظلم والجور مثيرين حماسة الجماهير بالرغم من تطرف بعض فرقهم، بالإضافة إلى رأيهم في أن الإمامة لا يشترط فيها الجنس والنسب بل أن يكون الإمام عادلاً فقط؛ لذلك سموا بـ"جمهوريو الإسلام"[٤].

المعتزلة

فنشأة المعتزلة قد تضاربت حولها الآراء فهناك من يرى أن نشأة المعتزلة كانت سياسية على غرار الشيعة والخوارج، وأن المعتزلة سابقة على نشأتها كفرقة أو كمذهب قبل "واصل بن عطاء"[*] منذ أيام خلافة

---

(١) جوزجاني، طبقات ناصري، ص١٩٢ ؛ تاريخ سيستان : ص٢٠٣ ؛ عبد الحسين زرين كوب، تاريخ إيران بعد از اسلام، ط طهران ١٣٧١هـ.ش، ص٥٠٥،٥٠٦

(٢) عباس إقبال، المرجع السابق، ص١٥

(١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص١٥١

(٢) فلهاوزن، أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الاسلام، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط٣ . القاهرة ١٩٧٨م، ص٤١ ؛ محمد جودة : الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة السامانية، رسالة دكتوراة، ص٢١٢

(*) واصل بن عطاء : هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزالي (٨٠-١٣١هـ) رأس المعتزلة ومن أئمة البلغاء المتكلمين، سمى أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية. (انظر: الخياط، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، ط. مكتبة الثقافة الدينية –القاهرة ١٩٨٨م، ص٩-١٠)

الراشدين ولاسيما خلافة أبي بكر الصديق ومن بعده عمر بن الخطاب والخلاف حول تولية علي بن أبي طالب، وبعدها قام فريق من الصحابة بالامتناع عن الدخول في الاختيار واعتزلوا هذه الحياة السياسية، وأربأوا بأنفسهم عن الفتنة الواقعة وأبرزهم "سعد بن أبي وقاص" و"عبد الله بن عمر" و "أسامه بن زيد"[4].

أما الرأي الآخر فيقول أن فكرة الإعتزال ظهرت عندما اختلف أحد تلامذة الحسن البصري(ت:١١٣هـ/٧٣١م) وهو "واصل بن عطاء الغزَّال" حول مسألة فقهيه وهي ما موقف المؤمن العاصي الذي ارتكب كبيرة من الكبائر؟ هل يعتبر مؤمناً من عدمه؟ وكان رأي واصل أن مثل هذا الشخص لا يعتبر مؤمناً ولا كافراً بل هو في منزلة بين المنزلين، فضلاً عن أنه اجتذب معه "عمرو بن عبيد" إلى المذهب وأصبح الاثنان معاً مؤسسي المذهب المعتزلي مع بداية القرن الثاني الهجري[1].

وفي رأينا أن الأرجح هو أن المعتزلة كفكر ظهر بالفعل منذ أيام خلافة الراشدين، وبالتحديد عند حادثة مجلس أهل الحل والعقد بعد مقتل الخليفة "عمر بن الخطاب" والخلاف حول تولية "على بن أبي طالب" أم"عثمان بن عفان" أي أنه اعتزال سياسي ولاسيما آنذاك، إلا أن هذه الرأي الفتنة، في آثر البعض الاعتزال بعيداً عن الأحداث الموجودة.

وصار أحد المؤرخين[2] معضداً لهذا الرأي عندما ابتعد فريق من الصحابة عن الحياة السياسية، فهذا عن نشأة المعتزلة كفكر هي أقدم من نشأتها كمذهب أوفرقة فيما بعد.

وكان المذهب المعتزلي قائماً على البحث والعقل وإعمال قانون السببية في الأشياء، وإطلاق حرية التفكير في الآراء و النصوص الدينية، فليس

---

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ط القاهرة ١٩١٠م، ص٩٧- ٩٨ ؛ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٠٧

(١) كارل بروكلمان، المرجع السابق، ص٢٠٧

(٢) محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، ج٢، ص٥٨

عندهم إجماع معين؛ لذلك كان يهاجمهم أصحاب بعض المذاهب الأخرى من السنة مثل الحنابلة وأيضاً الخلافة العباسية، نظراً لما له من أثر سياسي، وقد قوى أمر المعتزلة لدرجة أن جاء وقت كان الخليفة المأمون العباسي معتنقاً لهذا المذهب ويعتبر عصره هو العصر الذهبي للنقلة الفكرية والأدبية على يد المعتزلة[1].

فقد حكي عن المأمون ذات مرة أنه جالس رجلاً من الخوارج دخل إليه، فقال له المأمون: "ما الذي حملك على خلافنا والخروج علينا" فقال الخارجي: آية وجدتها في القرآن تقول "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون"، فقال المأمون: ألك علم بأنها منزلة قال نعم، رد عليه المأمون: وما الدليل على ذلك؟، قال إجماع الأمة، فقال المأمون: فلما رضيت بإجماعهم في التنزيل ورافض بإجماعهم في التأويل، فقال الخارجي صدقت والسلام عليك يا أمير المؤمنين[2].

يفهم من هذا النص العقلانية في البحث في آيات الله والكتاب وحرية الفكر، وعدم المصادرة على آراء الغير حتى لو كان مخالفاً لمذهبه.

وقد بدأ نشر تعاليم المذهب المعتزلي مع بداية القرن الثاني الهجري على يد "بشر بن المعتمر" المعتزلي وهو شيخ من شيوخ المعتزلة وهو الذي أحدث القول بالتوليد أي السببية(العلة والمعلول) فقد حاول نشر تعاليمه فنظمها شعراً لتفهمه العامة من الشعب[3].

أما عن بداية انتشار المذهب في خراسان فكانت أيضاً مع بداية القرن

---

(٣) محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، ص٥٧

(١) قدامة بن جعفر، الخراج وضعة الكتابة، ص٤٦٢

(٢) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ترجمة : عبد النعيم حسنين، تحقيق: لطفي عبد البديع، ط . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، ص١٧١ ؛ هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة: إحسان عباس وآخرون، ط٣ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩م، ص٩٢

الثاني الهجري على يد "حفص بن سالم" أحد تلاميذ واصل بن عطاء[1]، حيث كان لهم وجود وظهور لكن بلا غلبة في نيسابور[2]، وأيضاً مدينة "بلخ" حيث وجود شيخ المعتزلة "أبي القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البلخي" العالم المشهور على رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية[3].

وتكمن أهمية تعاليم المعتزلة أنها تعاليم في مواجهة الظلم والتبرير له عن طريق "القدرية" وهم الذين يزعمون أن الله تعالي قدر المعاصي، وجعلوا ذلك كالعذر للعاصي، حتى اعتقد بعضهم أنه لا يقدر ولا يصح منه غير ما قدر الله تعالي له ولا يجوز أن يوصف بذلك إلا من الإثبات لا من النفي[4].

وهنا تبرز أهمية فكر وتعاليم المذهب المعتزلي في الفترة السيئة للعالم الإسلامي وخاصة في المشرق حيث كثرت الثورات الشعبية من الأوضاع الاجتماعية، ويظهر فقهاء السلطة ويبررون مشروعية الظلم ويقولون هو قدر الله، هذه هي إرادة الله وأنها مقدرة سلفاً من ِقبَل الخالق، ويقومون بقمع الثورات ولاسيما حركات الشيعة[5].

ولا نستبعد أن يكون المعتزلة هم وقوداً حقيقياً للثورات الشيعية ولاسيما الشيعة الزيدية ؛ نظراً للارتباط التاريخي الوثيق بين المذهب الزيدي والمعتزلي علماً بأن الإمام "زيد بن على" قد تتلمذ وتعلم على يد"واصل بن عطاء" وأخذ عنه التفكير وإطلاق حرية العقل في النصوص الدينية، لعله ما يفسر خروج الزيديين دائماً في ثورات ضد الخلافة، بل وإقامة كيانات سياسية كبيرة لا تضطهد أو تقمع المذاهب الأخرى، مثل الدولة الزيدية في طبرستان، والبويهيين في فارس والعراق.

---

(٣) الخياط، الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، ص١٠

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٢٣

(٥) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص٢٨١

(٦) القاضي عبد الجبار، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، ط الدار التونسية- تونس ١٩٧٤م، ص١٦٧

(١) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ص١٤٢

وهذا يبرر ملاحظة كلود كاهن- الذكية- بأن نشاط الزيدية كان يتراوح في مده وجذره وفقاً لموقف الخلافة من المعتزلة[1].

وبناء على تلك الخلفية الفكرية للمعتزلة قام الخليفة العباسي "القادر بالله" عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م باستتابة فقهاء المعتزلة، فأظهروا الرجوع وتم حرمانهم من الكلام والتدريس والمناظرة، بالإضافة إلى امتثال السلطان محمود الغزنوي الذي قام بأعمال القتل والحبس للمعتزلة بجانب الشيعة وأمر بلعنهم على المنابر[2].

نخلص مما سبق أن المعتزلة في خراسان توارى نشاطهم وقل عملهم الثوري بسبب قسوة النظام الحاكم سواء أيام السامانيين أو الغزنويين مروراً بعهد السلاجقة، وبسبب أيضاً قوة وانتشار المذهب السني ووجود المذهب الشيعي الإسماعيلي الثوري.

الصوفية

فهم طائفة نسبوا إلى ظاهر اللباس، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم؛ لأن لبس الصوف من دأب الأنبياء والصديقين وشعار المتنسكين، ورسم الصوفيين كان معروفاً أيام الحسن البصري (ت١١٠ هـ/٨٢٨م)[3] .

لكن هناك من ذهب بالقول إلى أن نشأة التصوف كانت موجودة منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم حيث وجدت في أيامه جماعة من اثنى عشر شخصاً يقال لهم أصحاب الصفة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يجالسهم كثيراً في الخلوة، حيث يتسمون بالأدب والمروءة[4].

أما لقب"صوفي" قيل أنه أول ما أطلق على "أبي هاشم

---

(٢) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج١، ص١١١

(٣) ابن الجوزي، المنتظم،ج ١٥، ص١٢٥- ١٢٦

(١) الطوسي، اللمع، تحقيق: عبد الحليم محمود وطه سرور، ط دار الكتب الحديثة مصر ١٣٨٠هـ- ١٩٦٠م، ص٤١- ٤٢

(٢) كيكاوس بن زيار، قابوسنامه، ص٢٣٥

الكوفي"(ت:١٥٠هـ/٧٦٧م) وهو رجل زاهد من الكوفة، وقيل جابر بن حيان (ت:٢٠٨هـ/٨٢٣م) الذي كان يلقب بجابر الصوفي[١].

لقد كانت تعاليم الصوفية تحث على الزهد والبعد عن شهوات الدنيا والملذات، حيث كانت نشأتها الحقيقية كرد فعل للفتن والصراعات القائمة، حيث تصدى المتصوفة لبعض المفاسد الموجودة عن طريق الدعوة إلي الزهد لكن لم تكن ذات طابع أخلاقي بقدر ما كانت تعبر عن ظروف اجتماعية وسياسية تمثلت في ظهور اتجاهات دنيوية على حساب الدين، وفُرقة سياسية عبرت عنها الفرق التي نشأت إبان الفتنة الكبرى[٢].

وقد انعكست معطيات الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على أفكار ومعتقدات المتصوفة ؛ لذا فنجد العديد من المصطلحات الفلسفية للصوفية مثل"التخلي" وهو اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق[٣]، "المجاهدة": وهي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى عن كل حال[٤]، "الستر": وهو للعوام عقوبة حيث يكونون في غطاء الستر أي أن الله يخفي عنهم أحوالهم ليدوموا على جدهم واجتهادهم في عباداتهم[٥]، بجانب مصطلح "الفتوة": الذي قال عنه الإمام على بن أبي طالب أن الفتوة هي الإسلام والإيمان والعقل والدين والعلم والزهد والورع والكرم والمروءة وأن لا يغفل المؤمن عن جاره[٦].

كل تلك المصطلحات المستعملة من قبل الصوفية ووسائل التخفي

---

(٣) الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ط القاهرة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م، ص١١٢

(٤) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٣٦ ؛ محمود إسماعيل: دراسات في الفكر والتاريخ الإسلامي، ط١ سينا للنشر- القاهرة ١٩٩٤م، ص٦٩

(٥) الجرجاني، التعريفات، ط . مكتبة مصطفى البابي الحلبي- مصر١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص٤٦

(٦) الإسنوى، طبقات الشافعية، تحقيق: عبدالله الجبوري، ط١ بغداد ١٣٩١هـ- ١٩٧١م، ج٢، ص٦١٢

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، ط١ مطبعة دار التأل[illegible] ص٢٢٤

(٢) الأردبيلي، الفتوة، تحقيق: إحسان ذنون، ط١ . دار الرازي- الأردن ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، ص٢٤

والتجلي لها مدلولات اجتماعية معبرة عن الواقع[١]، حتى أن أحد المؤرخين[٢] قال بتوحد اتجاهات النسك الإسلامي المختلفة خلال القرن الثالث الهجري في طائفة عرفت بالصوفية والتي نشأت بالفعل ما بين الطبقة الدنيا.

لكن البعض قد قال بأن هناك أثراً من الحضارات القديمة على التصوف وعاداته مثل ديانة الهند القديمة، وقولهم بالخلود في العالم الباقي لمن ترك لذات الدنيا وهذا قول"برخمنين" الهندي: إن ترك لذات هذا العالم هو الذي يلحقكم بذلك العالم حتى تتصلوا به وتنخرطوا في سلكه وتخلدوا لذاته ونعيمه"[٣]، وهناك من يرى التأثير المسيحي، من حيث المظهر والتأثر باللباس حيث إن رهبان النصارى مميزون بأرديتهم الصوفية البيضاء، قيل أن ذاك الرداء الصوف له أثر على ارتداء المسلمين المتصوفة للصوف[٤].

أما عن انتشار التصوف في خراسان وبدايته، فقد كان له جذور قبل الفتح الإسلامي حيث كانت مدينة "بلخ" من أهم مراكز التصوف البوذي واستمرت شهرة هذه المدينة وسمعتها الصوفية بعد الإسلام، ونشأ فيها عدد من أوائل المتصوفة مثل "إبراهيم بن أدهم"[*] و"شقيق البلخي"[*] من مشايخ خراسان[٥].

---

(٣) آربري، تراث فارسي، ص٢١١

(٤) جواتياين، دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة وتحقيق: عطية القوصي، ط. الكويت ١٩٨٠م، ص١١٨

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ج٢، ص١٣٠٤

(٦) بروكلمان، المرجع السابق، ص٢٣٦

(*) إبراهيم بن أدهم : هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد التميمي، كان من أبناء المياسير، فهو زاهدا ورعا خرج إلى مكة و صحب سفيان الثوري و الفضيل بن عياض، وله طريقة خاصة في الزهد (ت : ٢٦١ هـ/ ٨٧٤ م) انظر : أبي عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، ص٢٧

(*) شقيق البلخي : هو شقيق بن ابراهيم أبو علي الأزدي من أهل بلخ حسن التوكل فيه، وهو من مشاهير مشايخ خراسان وهو أول من تكلم في علوم الأحوال بكور خراسان (انظر : أبي عبد الرحمن السلمي، أصول الملامتية وغلطات الصوفية، تحقيق : عبد الفتاح الفاوي، ط. الإرشاد- القاهرة ١٩٨٥م، ص٦١)

(١) أبو عبد الرحمن السلمي، المصدر السابق ، ص٦٠

فهناك بعض الزهاد الأقدمين في فارس وخراسان ومن أقدم متصوفة خراسان كان "عطاء بن أبي مسلم" وهو أقدم من أرخوا له وقد توفي (١٣٥هـ- ٧٥٢م) في بلخ، وبذلك يتبين لنا أن الزهد في فارس وخراسان قد تأخر ظهوره إلى بداية القرن الثاني الهجري على الأقل، وهذا يعني أن خراسان قد عكست لنا أفكار الزهد الكوفي الدائرة حول المجاهدة والخوف، وأفكار الزهد البصري المرتبطة بالحب والبكاء[١].

وفي حوالي أواخر القرن الثالث الهجري حمل تلاميذ "السري السقطي"* مذاهب الصوفية البغداديين إلى أنحاء الدولة الإسلامية، فحملها "موسى الأنصاري"(ت:٣٢٠هـ/٩٣٢م) وهو أحد دعاة الفكر الصوفي ببغداد إلى مرو بخراسان، وكذلك ظهر التصوف بمدينة نيسابور على يد "أبي على محمد بن عبد بن الوهاب الثقفي"(ت:٣٢٨هـ/٩٤١م)[٢].

ونتيجة لانتشار التصوف بخراسان فقد قام الحكام والسلاطين برعاية الصوفية والمتصوفين عن طريق تأسيس أماكن تعرف بالزوايا أو الخوانق أو التكايا، لكن قبل تأسيسها كان لهم بيوت صغيرة للذكر في ظاهر المدن سموها رباطات بالاسم الحربي[٣].

والجدير بالذكر أن معظم من انضموا إلى المتصوفين من الطبقة العامة الذين انخرطوا في سلك الزهد والعبادة، كما فعل بعض العامة بالانخراط مع

---

(٢) كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، ط٣ دار الأندلس – بيروت ١٩٨٢م، ص٣٥١

* السري السقطي : هو سري بن المغلس السقطي تلميذ معروف الكرخي ببغداد وهو خال الجنيد البغدادي، حيث كان أحد كبار مشايخ الصوفية، وهو أول من تكلم ببغداد في التوحيد و الأحوال (ت : ٢٥١ هـ/ ٨٦٤م) (انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٤) ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢،ص١٠١ ؛ السلمي : أصول الملامتية وغلطات الصوفية، ص٤٨

(٣) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص١٦ -١٧

(٤) هدى دريش، دور التصوف في انتشار الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز، ط١ عين. القاهرة ٢٠٠٤م،ص٩٧ ؛ محمود إسماعيل: دراسات في الفكر والتاريخ، ص٧١ ؛ آدم ميتز: المرجع السابق، ص٨

الشيعة الإسماعيلية[1]، بالإضافة أن بعض المنتسبين إلى الصوفية من أصحاب الحرف ومن الممكن أن تكون الطرق الصوفية قد أفادت في صياغة هيكلها التنظيمي من تنظيمات لأصحاب الحرف، مما ترتب عليه اكتساب التصوف مسحة اجتماعية نضالية[2].

وقد عبر عن هذا القصارية (الملامتية) وهم أتباع أبي صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار وهو عالم مشهور ومذهبه إظهار الملامة، وانتشر مذهبه في نيسابور في القرن الثالث الهجري، ويقول القصار عن الملامة أنها طريق صعب على العامة أن يسلكوه، إن الملامتي يتصف برجاء المرجئة وخوف القدرية[3].

يتضح من أفكار القصارية أنهم أصحاب حرفة القصارة وهي تنظيف وتبييض الثياب، مما يشي عن الطابع الاجتماعي والطبقة الممثلة لهذه الفرقة، وأن هذه الفرقة قد اتخذت موقفاً كالمرجئة أي سلبي وانعزالي عن الحياة السياسية.

لكن هناك فترة قد تحول فيها التصوف إلي أيديولوجية ثورية تناهض الفوضى السياسية والتسلط العسكري وتنطوي على أبعاد اجتماعية عبرت عنها حركة الحلاج الذي كان على اتصال بالقرامطة.

والحلاج هو الحسين بن منصور الحلاج ومنشأه في خراسان من نيسابور وقيل بمرو ويحني ابا المغيث، وهو رجل ناسك عابد ارتقى في العبادة لدرجة المصافاة حتى يصفو عن البشرية ثم حل فيه روح الله وهي ما تسمى بفكرة (الاتحاد والحلول)، ولا يظهر ما تكرهه الشريعة[4].

---

(١) بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ص٢١٩- ٢٢٠

(٢) محمود إسماعيل، محاضرات في تاريخ المشرق الإسلامي، ص٦٤-٦٥

(٣) الهجويري، كشف المحجوب، ترجمة: محمود أحمد أبو العزايم، ط دار التراث العربي- القاهرة د.ت،ص١١٨ ؛ السلمي: طبقات الصوفية، ص١٢٩ ؛ قاسم غني: تاريخ تصوف در إيران، ط تهران ١٣٦٢هـ، ص٤٣٩

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص٢٦٩ ؛ ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٤ ؛ الإصخري: المسالك والممالك، ص٩٠ ؛ أبي الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٧٠

وقد دخل الحلاج حلقة "سهل التستري"* وقد خلع على نظرية "المحاسبي"* القائلة بضرورة الرجعة إلى الله ثوباً من التقشف المستمر، وتحدث عن هالة النور المحيطة بأرواح المؤمنين وتمنحهم الحق في أن يشعروا أنهم في اتحاد مع الله وهي صورة مستمدة من بعض المعتقدات الشيعية، ولاسيما أنه اتصل خلال رحلته من خراسان إلى بغداد بأبي بكر الرازي الشيعي، فضلاً عن اتصاله بالقرامطة(١).

تلك هي التهمة التي بسببها قتل الحلاج في بغداد ، بالفعل هي التهمة الحقيقية غير المعلنة، حيث رأت السلطة العباسية أنه أصبح خطراً على الخلافة فألحقت به تهمة الكفر والإلحاد وادعاء الربوبية.

وقد قبض عليه في أيام وزارة حامد بن العباس عام ٣٠٩هـ/٩٢١م وناظروه واتهموه بأنه يدعي الربوبية والنبوة، فرد قائلا :" أعوذ بالله أن ادعي الربوبية والنبوة إنما أنا رجل أعبد الله عز ذكره وأكثر الصوم والصلاة وفعل الخير لا غير"، وتم صلبه وإحراق جثته وإلقاؤها في نهر دجله(٢).

أما مريدوه فقد فروا بأنفسهم إلى خراسان حيث مهدوا لنشر أفكاره ومذهبه، بالإضافة إلى إثراء الثقافة الإسلامية بالشعر الصوفي عند الفرس والترك(٣).

من خلال ما سبق يتضح كيف أن السلطة العباسية وهي في حالة ضعف تقمع معارضيها بتهم الكفر والزندقة، والحقيقة أن الحلاج أراد بفكرة الحلول

---

* سهل التستري:هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس التستري ولد في تستر عام ٢٠٣هـ، وكان صوفياً ومتكلماً وهو أستاذ "أبي عبدالله محمد بن سالم" ت:٢٦٧هـ مؤسس المدرسة السالمية، وتوفي سهل التستري عام ٢٨٣هـ/٨٩٦م (انظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، مجلد١، ج٤، ص١٢٩) .

* المحاسبي : هو الحارث بن أسد المحاسبي من علماء ومشايخ الصوفية والعارف بعلوم الظاهر والإشارات، وهو أستاذ أكثر البغداديين، لكن هو من البصرة (ت:٢٤٣هـ) (انظر: السلمي، طبقات الصوفية، ص٥٦) .

(١) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٥٠؛ بروكلمان، المرجع السابق، ص ١٣٨، ٢٣٧.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٤٦ ؛ السيوطي: تايخ الخلفاء، ص٣٨٠

(٣) بروكلمان، نفسه،ص٢٣٩

والاتحاد الخلاص من الوضع السيئ وحالة الظلم الاجتماعي والفساد عن طريق الله سبحانه وتعالى، مما يجعل البعض يتخيل أنه كافر عندما قال الحلاج" سبحاني ما أعظم شأني" فهو هنا يقصد الله سبحانه وتعالى وليس نفسه ؛ لأنه في تلك اللحظة في حالة اتحاد مع الله، أي هو تفسير نفسي وباطني بحت لحالة الحلاج، لعله تأثر بفكر القرامطة الباطني.

لكن هناك طوائف من الصوفية آثرت الانعزال والدروشة بعيداً عن السياسة، مما يجعل النظم العسكرية تلجأ للإسراف في تشييد المنشآت الدينية كالمساجد والخوانق والأربطة ؛ لأنها افتقدت مشروعية التأييد بسبب الظلم وسخط العامة، وهذا هو سبب ميل السلطة لرعاية التصوف خصوصاً في مراحل الدويلات شبه المستقلة السامانية والغزنوية والسلجوقية[1].

ومثلما وجد التصوف عند أهل السنة، كان هناك تصوف شيعي ويسمى بالتصوف العرفاني، لاسيما أن مع تطور أفكار الصوفية نجد تأثرهم بفكرتي التوكل والولاية الشيعيتين، مما أدى إلى امتزاج التصوف الخراساني بالتشيع الموجود آنذاك[2].

قصاري القول أن مراحل تطور التصوف تأثرت بمدى قدرة الطبقة العامة على مجابهة السلطة العسكرية الإقطاعية إلى أن وصلت الأمور إلى تكريس الإقطاع وعدم العدالة الاجتماعية، فوصل التصوف إلى أدنى مراحله فالتكايا والزوايا للأكل والشراب بل الانقطاع عن الفرائض بحجة أنهم وصلوا إلى مرحلة الكشف وإسقاط التكاليف، فرسخ هذا التواكل على الله وليس التوكل، مما دعا السلطة لرعايتهم واستخدامهم لقمع معارضيهم عن طريق وصمهم بالكفر والإلحاد والزندقة، مثلما فعل السلطان محمود الغزنوي والسلطان طغرل بك.

الكرامية:

وهو مذهب نشأ في خراسان على يد أبي عبد الله محمد بن كرام السجزي

---

(١) محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج٣،ص١٠٨

(٢) محمود إسماعيل، آراء ورؤى في الفكر والتاريخ والفن والأدب، ط رؤية القاهرة ٢٠٠٨م، ص٢٧

النيسابوري(ت: ٢٥٥هـ/٨٦٩م) الذي ولد في سجستان، وقد اتهمه خصومه بالتشبيه أو التجسيم ووضع الأحاديث، وقد تعرض للاضطهاد وتم اعتقاله في عهد الطاهريين عندما حبسه" محمد بن طاهر" (٢٤٨-٢٥٩هـ) في نيسابور لمدة ثماني سنوات، لكن لم يكن له نشاط قوي وظاهر في ذاك الوقت[١].

ومن ضمن اعتقادات الكرامية أن الإيمان قول بلاعمل بل بالقلب وهذا يعتبر أساسياً عند المرجئة* [٢]، وانقسمت الكرامية بخراسان إلى ثلاث فرق وهم:حقائقية و طرائقية وإسحاقية، لكن هذه الفرق الثلاث لا يكفر بعضها بعض[٣].

وقد ذهب دي بور[٤] إلى القول بأن مذهب الكرامية يعُد معارضاً لأفكار المعتزلة التي لا تقول بالتجسيم، بالإضافة إلى أنها ليست كالمعتزلة في حرية الفكر وإطلاق العنان للعقل؛ لذا استمرت إلى ما بعد القرن الرابع الهجري.

لكن بداية الظهور الحقيقي للكرامية على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية كانت في نهاية القرن الرابع الهجري، حيث مدينة نيسابور هي مستقر حركة الكرامية[٥]، ولاسيما في عهد الدولة الغزنوية حيث علا شأنهم بل أصبحوا من المقربين للسلطان محمود الغزنوي لأسباب سياسية سنتعرض

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١،ص١٨ ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٢،ص١٣١ ؛ صابرديباب: الدولة الإسلامية في العصر العباسي قضايا ومواقف، ص١٤٢

* المرجئة : هم حزب سياسي ظهر منذ أيام الدولة الأموية بعد حادثة التحكيم والفتنة الكبرى، فهم لا يكفرون أحدا، وقامت بدورها في التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين، حيث كان موقفهم معارض للخوارج الذين كفروا علي بن أبي طالب –رضي الله عنه- وقد رأس هذه الفرقة "الحارث بن سريج"ت: ١٢٨هـ (انظر: الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص١٠٨ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص٩) .

(٢) ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج٢،ص١٣١

(٣) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص٢٥

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م، ص٩١

(٥) عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق : نور الدين شربيه، ط١ دار الكتاب العربي- القاهرة١٩٥٣م، ص١٦

إليها تفصيلاً في الفصل الثالث عند الحديث عن صراع المذاهب في عهد الغزنويين.

ومن الملاحظ أن دعوة محمد بن كرام انتشرت بين العوام والفلاحين من البسطاء، حيث يذكر المقدسي[1] أنه كان لهم خوانق كثيرة بخراسان وماوراء النهر، لباسهم رداء من الصوف وفوطه مدلاه على رءوسهم تحيط بقلنسوة طويلة ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق، إما لأنه لباس حداد، وإما لأنه يلائم حال قوم فقراء جوالين في البلاد.

ويتضح أن الكرامية كغيرها من الفرق قامت بدافع اجتماعي انجذب إليها الفقراء والبسطاء، للبعد عن الدنيا والتزهد ومعارضة السلطة بسبب غياب العدالة الاجتماعية، بل جاء عليها فترة استخدامتها السلطة كوسيلة لقمع فرقة أخرى (الشيعة) وهذا ما سيتم الحديث عنه فيما بعد.

(٦) البدء والتاريخ، ط. باريز ١٩١٦م،ج٥، ١٤١؛ آدم ميتز: المرجع السابق، ص١٨ – ١٩